كشف وهم من نسب لله تعالى الصورة

أ . أحمد عبد الحميد مختار الضبع

كلية التربية–جامعة طرابلس

الحمد لله المنزّه عن الشّبه والنّظير، والصّلاة والسّلام على من زيّنه الله في أجمل هيئة وأحسن تصوير، وعلى آله وصحبه والتّابعين، أما بعد،

فإن السّنة النّبوية هي المصدر الثاني من مصادر التشريع، حيث تأتي بعد منزلة القرآن العظيم، وقد احتوت ما احتواه القرآن من محكم التنزيل ومتشابهه، فكان من حديث النّبي ﷺ بعض ما يَشكُل فهمُه ويَصعُب بيانُه ويوهِم ظاهرُه التشبيهَ والتمثيلَ مما يستحيل في حقّه –سبحانه وتعالى–، فعكف العلماء على كشف معانيه بالتدقيق والتدبير، ومنهم من سلك مسلك التأويل جاعلين نصب أعينهم قوله سبحانه: ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾.

وكان من بين ما أشكل حديث الصورة الذي كَثُر فيه الكلام والتأويل، واختلفت مشارب العلماء في فهم نصّه والاهتداء إلى معناه القويم، فأعددت العدّة لخوض غمار هذا الحديث والغوص في معانيه والوقوف على أقوال العلماء وبيان آرائهم وأوجه التفسير والتأويل، معتمدا في ذلك على شروح السّنة النّبوية، ووسمت البحث بعنوان:

(كشف وهم من نسب لله تعالى الصورة).

أهمية الموضوع:

تكمن أهمية الموضوع في النقاط الآتية:

1/ رد الشّبهات عن الحديث النبوي الشريف.

2/ إعمال العقل في إزالة الخلاف.

3/ بيان الفهم الصحيح لما أُشكِل من اللفظ في الحديث.

إشكال البحث:

يكمن إشكال البحث في الجواب عن السؤال المتبادر للذهن وهو ما مرجع الضمير في قوله ﷺ:

(خلق الله آدم على صورته)؟

المنهج المتبع:

حيث تقتضي طبيعة البحث السير على المنهج الوصفي، التحليلي، النقدي.

خطـة البحث:

وقد احتوى البحث على مقدمة، وأربعة مباحث، وخاتمة، وقائمة المصادر والمراجع.

المقدمة:

المطلب الأول: الصورة في اللسان العربي.

المطلب الثاني: روايات الحديث وبيان أسانيده.

المطلب الثالث: أوجه التفسير في رجوع الضمير.

المطلب الرابع: مقالات نقدية.

خاتمة:

قائمة المصادر والمراجع.

المطلب الأول: الصورة في اللسان العربي

الصورة لغة:

الصُّورة: بالضّم الشّكل، وصورة كلّ مخلوق هي هيئة خِلقته، والله عزّ وجلّ المصوِّر: وهو الذي صوّر جميع الموجودات ورتّبها فأعطى كل شيء منها صورة خاصة وهيئة مفردة يتميّز بها على اختلافها وكثرتها، والجمع صُوَرٌ، وصِوَرٌ، كعِنَب، والصّيِّر: الحسَنُ الصُّورة، يقال رجُل صَيِّرٌ إذا كان جميلَ الصّورة (معجم مقاييس اللغة 320/3. لسان العرب 438/7. القاموس المحيط 427. مختار القاموس 365).

وتستعمل الصورة بمعنى النوع والصفة (القاموس المحيط 427. مختار القاموس 365).

قال ابن الأثير: "الصورة ترد في كلام العرب على ظاهرها، وعلى معنى حقيقة الشيء وهيئته، وعلى معنى صفته، يقال: صورة الفعل كذا وكذا أي هيئته، وصورة الأمر كذا وكذا أي صفته ..." (لسان العرب 438/7).

أما الصَّوَرُ بالتحريك فهو المَيَلُ، ورجلٌ أصْوَرٌ بيّن الصَّوَرِ أي مائل مشتاق (لسان العرب 438/7).

والصَّوْر: بالتسكين النّخل الصّغار أو المجتمع، والصُّور: بالضّم القرن ينفخ فيه. الصِّوار والصُّوار الرائحة الطيبة، والقليل من المسك (لسان العرب 438/7. القاموس المحيط ص427).

المطلب الثاني: روايات الحديث وبيان أسانيده

وردت في سنة النّبي ﷺ لفظة الصورة في أكثر من حديث منها:

1ـ حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ وفي حديث أبي حاتم عن النبي ﷺ قال: (إذا قاتل أحدكم

أخاه فليجتنب الوجه فإن الله خلق آدم على صورته) (مسلم، كتاب البر والصلة ولآداب، باب النهي عن ضرب الوجه (2/ 1108) حديث 6821. مسند أحمد، (12 /382)، حديث 7420. واللفظ لمسلم).

وفي الأدب المفرد: عن أبي هريرة قال: (لا تقولن قبح الله وجهك ووجه من أشبه وجهك، فإن الله عز وجل خلق آدم ﷺ على صورته) (البخاري، الأدب المفرد (71) حديث 173. ينظر: أحمد، مسند أحمد (382/12) حديث 7420، البيهقي، الأسماء والصفات، (278). ابن خزيمة، كتاب التوحيد ((84)).

2_ **حديث** أبي هريرة عن النّبي ﷺ قال: (خلق الله آدم على صورته، طوله ستون ذراعا، فلما خلقه قال اذهب فسلم على أولئك النفر من الملائكة جلوس فاستمع ما يحيّونك فإنها تحيتك وتحية ذريتك، فقال: السلام عليكم، فقالوا: السلام عليك ورحمة الله، فزادوه: ورحمة الله، فكل من يدخل الجنّة على صورة آدم، فلم يزل الخلق ينقص بعد حتى الآن) (البخاري، كتاب الاستئذان، باب بدء السلام (1267/3) حديث 6299. مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب يدخل الجنة أقوام أفئدتهم مثل أفئدة الطير (1198/2) حديث 7342. واللفظ للبخاري. أحمد، مسند أحمد، (13/ 504) حديث 8171).

3_ وقد روى ابن خزيمة في كتابه الذي سمّاه بـ (التوحيد) رواية صريحة بأن صورة آدم على صورة الرحمن، وعلق على سند هذه الرواية، وذلك في بيانه طرق الحديث على النحو الآتي:

أ/ ما حدثنا به يوسف بن موسى، قال: حدثنا جرير عن الأعمش عن حبيب بن أبي ثابت عن عطاء بن أبي رباح عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: (لا تقبحوا الوجه فإن ابن آدم خلق على صورة

الرحمن) (كتاب التوحيد 87).

وبإسناد آخر:

ب/حدثنا أبو موسى محمد بن المثنى قال: حدثنا عبد الرحمن بن مهديّ قال: حدثنا سفيان عن حبيب بن أبي ثابت عن عطاء قال: قال رسول الله ﷺ: (لا يقبح الوجه، فإن ابن آدم خلق على صورة الرحمن) (كتاب التوحيد 87).

فقد جاء في هذه الرواية إسنادان، أحدهما: إسناد متصل، وهو رواية: الأعمش عن حبيب بن أبي ثابت عن عطاء عن ابن عمر عن النبي ﷺ.

والآخر: إسناد مرسل، وهو رواية: سفيان الثوري عن حبيب بن أبي ثابت عن عطاء مرسلا عن النّبي ﷺ.

وقد أعلّ ابن خزيمة هذه الرواية بثلاث علل: .

الأولى: أن الثوري قد خالف الأعمش في إسناده، فأرسل الثوري ولم يقل عن ابن عمر.

الثانية: أن الأعمش مدلس، لم يذكر أنه سمعه من حبيب بن أبي ثابت.

الثالثة: أن حبيب بن أبي ثابت أيضا مدلس، لم يعلم أنه سمعه من عطاء (كتاب التوحيد (88)، دفع شبهة التشبيه بأكف التنزيه ص146).

وعندما سئل الإمام الدارقطني عن هذه الرواية قال: " والمرسل أصح" (العلل الواردة في الأحاديث النبوية 188/13).

وروي أيضا من طريق: ابن لهيعة، عن الأعرج، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "إذا

ضرب أحدكم فليجتنب الوجه؛ فإن صورة الإنسان على صورة الرحمن _عز وجل_" (الصفات (37) حديث 49).

ومن طريق: ابن لهيعة، عن أبي يونس سليم بن جبير، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ:" من قاتل فليجتنب الوجه؛ فإن صورة وجه الإنسان على صورة وجه الرحمن" (السنّة (230/1) حديث 521).

فمدار هاتين الطريقين هو ابن لهيعة، (عبد الله بن لهيعة بن عقبة الحضرمي بن فرعان بن ربيعة بن ثوبان القاضي، الإمام، العلامة محدث ديار مصر مع الليث، أبو عبد الرحمن الحضرمي الأعدولي، ويقال الغافقي المصري، ولد سنة 95هـ أو 96هـ، وتوفي سنة 174هـ. ينظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء (11/8). ابن حجر، تهذيب التهذيب (327/5))، وقد تكلم فيه علماء الجرح والتعديل وبيان ذلك كالآتي: .

حيث قال عنه ابن حبان:" كان شيخا صالحا، ولكنه كان يدلّس عن الضعفاء قبل احتراق كتبه، ثم احترقت كتبه في سنة 170هـ قبل موته بأربع سنين، وكان أصحابنا يقولون إن سماع من سمع منه قبل احتراق كتبه مثل: العبادلة، فسماعهم صحيح، ومن سمع منه بعد احتراق كتبه فسماعه ليس بشي" (المجروحين (504/1)، وطبقات المدلسين (54/1)).

وقال الدارقطني: "عبد الله بن لهيعة وربما نسب إلى جده، يعتبر بما يروي عنه العبادلة: ابن المبارك، والمقرئ، وابن وهب" (الضعفاء والمتروكون 160/2).

وقال البخاري: "حدثنا الحميدي، عن يحي بن سعيد، أنه كان لا يراه شيئا" (الضعفاء الصغير 80/1).

وقال عنه النّسائي: "ضعيف" (الضعفاء والمتروكين 64/1).

وقال يحي بن معين: "ابن لهيعة ضعيف الحديث" (المجروحين 505/1).

وبناء على ما ذكر يتبين ضعف ابن لهيعة، ولا سبيل بالاحتجاج لما رواه في الطريقين المذكورين.

قال الإمام المازري: "وأما من صرح بهذا الضمير وأخرجه الرحمن فإنه يردّ من جهة النقل وأنه ضعيف عند المحدثين" (المعلم بفوائد مسلم 303/3).

4/ وكذلك جاء ذكر الصورة في جزء من حديث طويل رواه الشيخان وهو قوله ﷺ: (وتبقى هذه الأمة فيها منافقوها، فيأتيهم الله في غير الصورة التي يعرفون، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: نعوذ بالله منك، هذا مكاننا حتى يأتينا ربنا، فإذا أتانا ربنا عرفناه، فيأتيهم الله في الصورة التي يعرفون، فيقول: أنا ربكم، فيقولون: أنت ربنا، فيتبعونه، ويضرب جسر جهنم، قال رسول الله ﷺ: فأكون أول من يجيز، ودعاء الرسل يومئذ اللهم سلّم سلّم ... إلخ) (البخاري. كتاب الرقاق. باب الصراط جسر جهنم. (1330/3) حديث 6653. مسلم، صحيح مسلم. كتاب الإيمان. باب معرفة طريق الرؤية. (92/1) حديث 469. واللفظ للبخاري).

5/ حديث: (رأيت ربّي في أحسن صورة) هذا الحديث له أسانيد مختلفة، وطرق متعددة، يطول الكلام عنها، ولعلّه يفرد في بحث مستقل يتناول أسانيده وطرقه، ولكن ما يجدر الإشارة إليه هو ما قاله الحافظ البيهقي في هذا الحديث: "وقد روي من وجه آخر، وكلّها ضعيف، وأحسن طريق فيه رواية: جهضم بن عبد الله، ثم رواية موسى بن خلف، وفيهما ما دلّ على أن ذلك كان في النوم" (الأسماء والصفات 285).

المطلب الثالث: أوجه التفسير في رجوع الضمير.

وإذ تبين لنا المعنى اللغوي للصورة وبعد أن ذكرنا الأحاديث المتعلقة بذلك، نأتي إلى المعنى المقصود من الصورة في الحديث، وكيفية فهمها فهما صحيحا مع بيان استدلالات العلماء حول هذه المسألة، حيث اختلفت آراؤهم في ما يرجع الضمير في قوله ﷺ :(خلق الله آدم على صورته) على ثلاثة أقوال نبينها على النحو الآتي:

القول الأول: إن الضمير يرجع إلى غير آدم وغير الله.

القول الثاني: إن الضمير يرجع إلى آدم عليه السلام.

القول الثالث: إن الضمير يرجع إلى الله عز وجل.

وفيما يأتي بيان المسألة بالتفصيل: -

القول الأول:

حيث نظر في رجوع الضمير إلى سبب ورود الحديث أو إلى مناسبة ذكر الحديث في قوله: ﷺ: "إذا قاتل أحدكم أخاه فليجتنب الوجه فإن الله خلق آدم على صورته" وذلك عندما مرّ النبي ﷺ برجل يضرب ابنه أو عبده في وجهه لطما، ويقول: قبح الله وجهك ووجه من أشبه وجهك، فنهاه وزجره ﷺ عن ذلك لما في قوله: ووجه من أشبه وجهك من سبّ للأنبياء وللمؤمنين (مشكل الحديث 48).

وفي أمر النّبي ﷺ من اجتناب ضرب الوجه حكم أهمها:

1/ إكرام لآدم –عليه السلام–؛ لمشابهة المضروب له.

2/ مراعاة لحق الأبوّة.

3/ تفضيل الله تعالى لصورة آدم عليه السلام الذي خلقه بيديه وأسجد له ملائكته، وبرجوع الضمير إلى المضروب ذهب المهلّب، وابن بطال (شرح صحيح البخاري 70/7).

ويرى ابن فورك أن هذا الاحتمال ظاهر (مشكل الحديث 62).

وقد صرح القاضي عياض، والحافظ القرطبي، والأبّي في معرض شرحهم لهذا الحديث أو الرواية الذي ذكر فيه السبب أن الضمير عائد على الأخ المنهي أن يضرب وجهه وبذلك يستقيم الكلام، وتظهر فائدة الحديث ويرتفع الإشكال (إكمال المعلم بفوائد مسلم 91/8. المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم 597/6. إكمال إكمال المعلم 52/7).

قال الحافظ ابن حجر: "واختلف في الضمير على من يعود، فالأكثر على أنه يعود على المضروب لما تقدم من الأمر بإكرام وجهه، ولولا أن المراد التعليل بذلك لم يكن لهذه الجملة ارتباط بما قبلها" (فتح الباري 217/5، وإرشاد الساري 327/4).

وقد استحسن الإمام العيني في هذا الحديث قول الأكثرين برجوع الضمير إلى المضروب (عمدة القارئ 165/13).

قال الحافظ ابن فورك: "وخصّ آدم بالذكر؛ لأنه هو الذي ابتدئت خلقة وجهه على الحد الذي يحتذى عليها من بعده، كأنه ينبهه على أنك قد سببت آدم ومن ولد، مبالغة في الردع له عن مثله، وإذا كان كذلك فهذا وجه ظاهر، والهاء كناية عن الضرب في وجهه ولا شبهة فيه" (مشكل الحديث 49).

القول الثاني:

حيث ذهب إلى أن الضمير يرجع إلى آدم -عليه السلام-:

قال الإمام الخطابي: "الهاء وقعت كناية بين اسمين ظاهرين، فلم يصلح أن تصرف إلى الله عزّ

وجلّ؛ لقيام الدليل على أنه ليس بذي صورة سبحانه (ليس كمثله شيء)، فكان مرجعها إلى آدم" (أعلام الحديث 2227/1).

وقال الحافظ ابن فورك: "إن رجع به إلى آدم، فيحتمل، وهو الأقرب" (مشكل الحديث 62).

وقد صرّح القاضي عياض في معرض حديثه عن قوله ﷺ: "خلق الله عز وجل آدم على صورته، طوله ستون ذراعا" بأن قوله: "طوله ستون ذراعا" يبين الإشكال ويزيح التشابه، ويوضح أن الهاء راجعة إلى آدم –عليه السلام– (عياض، إكمال المعلم 374/8).

وقد استدل الإمام الفخر الرازي –رحمه الله– بأن عودة الضمير إلى أقرب مذكور واجب، وفي الحديث أقرب الأشياء المذكورة آدم عليه السلام، فكان عود الضمير إليه أولى (الفخر الرازي. أساس التقديس 113). جاء في ارتشاف الضرب: "فإذا تقدم اسمان مستويان في الإسناد، كان الضمير عائدا على الأقرب، إلا إن دلّ دليل على أنه لغير الأقرب" أبو حيان الأندلسي، ارتشاف الضرب (941/2). وفي شرح الكافية:" إذا تقدم ما يصلح للتفسير شيئان فصاعدا، فالمفسر هو الأقرب لا غير، نحو: "جاءني زيد وبكر فضربته، أي ضربت بكرا، ويجوز مع القرينة أن يعود للأبعد، نحو: جاءني عالم وجاهل فأكرمته" الرضي، شرح الكافية (115/2).

وقد بيّن الحافظ القرطبي: "عند تعليقه على رواية (طوله ستون ذراعا) إن الهاء راجعة إلى آدم وهذا الأصل في عود الضمائر (المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم 183/7).

وقال الإمام النووي: "وهذه الرواية ظاهرة في أن الضمير في صورته عائد إلى آدم" (النووي، شرح صحيح مسلم 178/17).

وقد ذهب السنوسي، والكرماني، والقسطلاني أيضا إلى عودة الضمير إلى آدم في هذه الرواية

(مكمل إكمال الإكمال 215/7. البخاري بشرح الكرماني 72/22. إرشاد الساري 130/9).

وقال الحافظ ابن حجر: "وهذه الرواية تؤيد قول من قال إن الضمير لآدم" (فتح الباري 422/6).

وقال الإمام العيني في هذه الرواية: "قوله: (على صورته) أي على صورة آدم؛ لأنه الأقرب" (عمدة القارئ 358/22).

وقد بيّن الإمام الخطابي _رحمه الله_ معنى خلق آدم على صورته بأن أول ما تناولته الخلقة أو لما خلقه الله أوجده خلقا تاما طوله ستون ذراعا، أما ذرّيته فقد مرّوا في أطوار عند خلقتهم من نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم صاروا أجنة إلى حين ولادتهم وبعدها ينشئون صغارا إلى أن يكبروا فيتم طول أجسادهم) (أعلام الحديث 2228/1).

وقد ذكر بعض العلماء أوجها في تفسير معنى رجوع الضمير إلى آدم _عليه السلام_، ملخصها فيما يلي: (مشكل الحديث 50، وأساس التقديس 115).

1/ ذكر فضل الله تعالى وإنعامه على سيدنا آدم _عليه السلام_ بأن خلقه بيديه وأسكنه جنّته، وأسجد له ملائكته، وعلّمه الأسماء كلها، ثم لما نسي آدمُ أمرَ ربّه وخالفه لم يعاقبه الله عز وجل بسائر ما عاقب به المخالفين له في نحوه، إكراما له وصونا من عذاب المسخ، فصورة آدم عندما أهبط إلى الأرض هي نفس الصورة التي كان عليها في الجنة.

2/ إبطال لقول الدهرية: القائلين بأنه لم يكن إنسان إلا من نطفة، ولا نطفة إلا من إنسان، ليس لذلك أول ولا آخر، فأخبر النّبي ﷺ فساد قول هؤلاء وبيّن لنا أن أول من خلق الله من البشر آدم –عليه السلام– على صورته وهيئته التي قدره الله عليها، سواه الله _عز وجل_ وعدّله خلقا تاما من أول نشأته إلى مماته لم يتغير.

3/ إبطال لقول الطبائعيين: القائلين إن بعض ما عليه آدم –عليه السلام– من صورة وهيئة لم يخلقه الله وإنما كان ذلك من توليد الطبع أو تأثير الفلك، فأخبر النّبي ﷺ فساد قول هؤلاء أيضا وبيّن لنا أن الله وحده هو الخالق لآدم لم يشاركه في ذلك أحد لا في خلقته ولا في تصويره ولا في أي شيء من نشأته.

4/ إبطال لقول القدرية: القائلين إن من صورة آدم –عليه السلام– وصفاته وهيئاته ما لم يخلقه الله، وإنما خلقها آدم لنفسه، فأخبر النّبي ﷺ فساد قولهم، وبيّن أن الله خلق آدم على جميع صوره وصفاته ومعانيه وأعراضه، لم يشاركه في ذلك أحد، لا آدم ولا غيره.

تعليق:

من خلال القولين السابقين يتبين أن هناك وجهين من الآراء في النظر إلى المسألة.

الأول: نظر إلى المسألة أو إلى الحديث بغض النظر عن ذكر السبب، فتناول الحديث (إن الله خلق آدم على صورته)، ومن بين هؤلاء الحافظ ابن فورك.

الثاني: نظر إلى رجوع الضمير من خلال ما تضمنه النص النبوي في كل حديث ورواية، فحمل قوله ﷺ: (خلق الله آدم على صورته)، حملوه على صورة الرجل المضروب بناء على قوله ﷺ: (قبح الله وجهك ووجه من أشبه وجهك). وحملوا الضمير في قوله ﷺ :(خلق الله آدم على صورته)، على آدم بناء على تكملة الحديث: (طوله ستون ذراعا)، ومن بين هؤلاء القاضي عياض، والحافظ القرطبي، والسنوسي، والكرماني، والقسطلاني، والعيني، وكل هؤلاء الأئمة والحفاظ ممن سبق ذكرهم في القولين السابقين لا يستحسنون عودة الضمير إلى الله _عز وجل_، ويرون أن الله تعالى منزّه عن الصورة والهيئة

والشكل، مما سيأتي تناوله بالتفصيل في القول الثالث وعرض الشبه مع دحضها بالأدلة والبرهان.

القول الثالث: في رجوع الضمير إلى الله سبحانه وتعالى:

بعدما بسطنا الكلام في القولين السابقين عن رجوع الضمير إلى غير الله سبحانه وتعالى، بقي لنا أن نتناول القول الثالث، ونبين التأويلات التي يحتملها في حالة رجوع الضمير إلى الله سبحانه وتعالى، ولكن قبل الشروع في ذلك ينبغي تسليط الضوء على أمور مهمة، وهي كالآتي:

أولا: إن الصورة الظاهرة بمعنى الشكل والهيئة في حق الله محال:

فإن الذي يجب علينا وعلى كل مسلم أن نعلم أن ربّنا _عز وجل_ ليس بذي صورة ولا هيئة، فإن الصورة تقتضي الكيفية، وهي عن الله وعن صفاته منفية (أعلام الحديث 529).

إذاً: فإن كان المقصود بالصورة هي الصورة الظاهرة فهذا لا ينبغي ولا يجوز في حق الله –سبحانه وتعالى–؛ لأن الله منزّه عن مشابهته تعالى للمخلوقات بصحيح النقل وصريح العقل الذي يأبى مماثلة الذات الإلهية للحوادث.

فلذلك يرى الحافظ القرطبي أن في رجوع الضمير إلى الله تعالى إشكالا يوهم في حق الله تشبيها، وأنه ينبغي ألا يصار إليه عقلا ولا شرعا،

أما العقل: فينفي الصورة الجسمية في حقّ الله سبحانه وتعالى.

أما الشرع: فلم ينص على ذلك نصا قاطعا، ومحال أن يكون ذلك؛ لأنّ النص القاطع صادق، والصادق لا يقول المحال (المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم 598/6).

ثانيا: آيات وأحاديث الصفات بين جمهور السلف والمتكلمين:

الطريقة الأولى: موقف جمهور السلف أو كلّهم من الآيات والأحاديث التي توهم ظاهرها مشابهة

الله تعالى للمخلوقات وذلك على النحو الآتي:

1/ وجوب الإيمان بها، والإمساك عن تأويلها، مع الاعتقاد الجازم أن لها معنى يليق بجلال الله تعالى وعظمته، قال الذهبي: "وأما السلف فما خاضوا في التأويل بل آمنوا، وكفّوا، وفوّضوا علم ذلك إلى الله ورسوله" (سير أعلام النبلاء 376/14)، والشاهد على ذلك ما رواه الوليد بن مسلم، قال: سألت الأوزاعي وسفيان الثوري ومالك بن أنس والليث بن سعد عن هذه الأحاديث التي جاءت في الصفات؟ فقالوا أمرّوها كما جاءت بلا كيف. (التمهيد 137/6).

2/ الاعتقاد الجازم بأن ظاهرها غير مراد، وأن الله تعالى ليس كمثله شيء، وأنه منزّه عن التجسم، والانتقال، والتحيّز في جهة، وعن صفات المخلوقات.

وهو مذهب جماعة من المتكلمين أيضا، واختاره جماعة من محققيهم، وهو أسلم.

الطريقة الثانية: موقف جمهور المتكلمين من الآيات والأحاديث التي توهم ظاهرها مشابهة الله تعالى للمخلوقات وذلك على النحو الآتي:

تأويل النصوص على ما يليق بتنزيه الله تعالى وأنه ليس كمثله شيء، وإنما يسوغ تأويلها لمن كان من أهله، بأن يكون عارفا بلسان العرب وقواعد الأصول والفروع، ذا رياضة في العلم (النووي، شرح صحيح مسلم (19/3) و(166/16)).

وبناء على ذلك فإن الصورة والهيئة والشكل في حق الله مستحيل؛ لأنها من لوازم الحوادث مما يكون نقصا في حق الله سبحانه وتعالى، إذًا ما المقصود من الحديث؟ وكيف يتم توجيه الحديث أو ما الاحتمالات التي قد يصار إليها؟

في هذا الصدد يذكر الإمام الخطابي في تأويل رجوع الهاء إلى الله –جل جلاله– وجهين:

الوجه الأول: أن تكون الصورة بمعنى الصفة، كما يقال صورة الأمر كذا وكذا أي صفته، ويؤكد ذلك قوله ﷺ (فيأتيهم الله في أدنى صورة من التي رأوه فيها) (البخاري، كتاب التفسير، باب" إن الله لا يظلم مثقال ذرة" (920/2). حديث 4624. مسلم، كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية (94/1) حديث 472. واللفظ الذي رواه الشيخان في جزء من حديث طويل، " أتاهم رب العالمين في أدنى صورة من التي رأوه فيها ...إلخ ") وهم لم يكونوا رأوه قط من قبل ذلك، فعلم أن المقصود بالصورة الصفة التي عرفوه بها، وقد تكون الرؤية بمعنى العلم كقوله تعالى: " وأرنا مناسكنا " أي علّمنا.

الوجه الثاني: إن عطف ذكر الله تعالى على المعبودات الباطلة التي هي صور وأجسام كالشمس والقمر وغير ذلك فيه نوع من المطابقة، فقيل " يأتيهم الله في صورة كذا إذا كانت قبله صورا وأجساما. وقد يحمل آخر الكلام على أوّله في اللفظ ويعطف بأحد الاسمين على الآخر والمعنيان مختلفان، وهو كثير في كلامهم مثل: العمرين، والأسودين (أعلام الحديث 529).

وقد ذكر الحافظ ابن فورك أن القول بعودة الضمير إلى الله _عز وجل_ هو الأبعد من بين الأقوال، وفي حالة عود الضمير إلى الله يحتمل الوجوه الآتية:

1/ أن يكون معنى الصورة في الحديث هي الصفة، أي خلق الله آدم على صفته، أي على صفة الله سبحانه وتعالى، وذلك أن الله متصف بصفات الكمال التي منها: الحي، العليم، القدير، المريد، السميع، البصير، المتكلم، فخلق جل جلاله آدم – عليه السلام– على صفته مما هي صفة التعالي، بكونه حيّا، عالما، مريدا، قادرا، سميعا، بصيرا، متكلما.

2/ إن الضمير عائد على الله تعالى إضافة تشريف وتكريم، مثل قوله تعالى: ﴿ونفخت فيه من روحي﴾ [سورة ص، من الآية (71)]، وقوله تعالى: ﴿ناقةَ الله﴾ [سورة الشمس، من الآية (13)]، وقوله تعالى

أيضا: ﴿وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا﴾ [سورة الفرقان، من الآية (63)]، وغير ذلك، فهذه الإضافات إلى الله –سبحانه وتعالى– إضافة تشريف ، وكذلك يقال في الحديث، بمعنى أن الله هو الذي ابتدأ خلق آدم –عليه السلام– لا على مثال، بل أبدعه واخترعه اختراعا ثم اخترع من بعده على مثاله، فتشرفت صورته بالإضافة إليه من حيث كانت مخصوصة بها على هذا الوجه، ثم سائر وجوه التشريف مما خص بها آدم _عليه السلام_. (مشكل الحديث ص55)

أما فيما يتعلق بحديث " رأيت ربّي في أحسن صورة " فقد ذكر الإمام البيهقي تأويله على وجهين عند أهل النظر (الأسماء والصفات ص286):

الوجه الأول: ـ أن يكون معناه: وأنا في أحسن صورة، كأنه زاده كمالا وحسنا وجمالا عند رؤيته، وإنما التغير وقع بعده لشدّة الوحي وثقله.

الوجه الثاني: ـ أنه بمعنى الصفة، ومعناه أنه تلقاه بالإكرام والإجمال، فوصفه بالجمال. وقد يقال في صفات الله تعالى إنه جميل، ومعناه: أنه مجمل في أفعاله.

المطلب الرابع: مقالات نقدية

سأكتفي في هذا الصدد تناول جزئيات في مسألة إثبات الصورة على ظاهرها بالنقد، وذكر بعض الشبه ومعالجتها ضمن الرد على بعض المعاصرين.

أولا: نقد قول من زعم إثبات صورة ظاهرة لله سبحانه وتعالى.

فإذا توهم واهم أن الظاهر من نص الحديث أن له صورة لا كالصور، فالإجابة عليه تأتي في ردّ الإمام المازري

حيث علّل _رحمه الله_ فساد قول من زعم أن لله تعالى صورة ليست كالصور، بقوله:" والذي قاله

لا يخفى فساده؛ لأن الصّورة تفيد التركيب، وكلّ مركب محدث، والباري سبحانه وتعالى ليس بمحدث، فليس بمركب وما ليس بمركب فليس بمصوّر"

كما فند المازري قول المبتدعة: إن الله _عز وجل_ جسم لا كالأجسام، لما رأوا أهل السنة يقولون: الله –جل جلاله– شيء لا كالأشياء، بيّن بطلان قياسهم بقوله: " والفرق بين ما قلناه وما قالوه إن لفظة شيء لا تفيد الحدوث ولا تتضمن ما يقتضيه، وقولنا: جسم وصورة يتضمّنان التأليف والتركيب وذلك دليل الحدوث" (المعلم بفوائد مسلم، 299/3).

ثانيا: نقد كلام بعض المعاصرين في إثبات صورة ظاهرة لله سبحانه وتعالى.

وقد ناقش بعض المعاصرين قضية عودة الضمير في قوله ﷺ: (خلق الله آدم على صورته) وملخص ما قرره في جوابين هما: (شرح العقيدة الواسطية ص107).

الجواب الأول:

أ/ في قوله ﷺ: (خلق الله آدم على صورته) الضمير يرجع إلى الله، وهذا إثبات للصورة.

ب/ وفي قول الله –سبحانه وتعالى–: ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ نفي للمماثلة، والكلّ حقّ نؤمن به، ونقول " كلٌّ من عند ربنا، ونسكت.

وقال إن الذي قال: (خلق الله آدم على صورته) هو الذي قال: (إن أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر ...) (مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر وصفاتهم وأزواجهم، (2/ 1196) حديث 7328)، فأولئك الذي يدخلون الجنة على صورة بشر، لكن في الوضاءة، والحسن، والجمال، واستدارة الوجه، وما أشبه ذلك على صورة القمر لا من كل وجه، وبذلك يزول الإشكال، وتبين أنه لا يلزم من كون الشيء على صورة الشيء، أن يكون

مماثلا له من كل وجه، ويرى أن حمل الصورة على ظاهرها هو الأسلم.

الجواب الثاني:

أن تكون الإضافة من باب إضافة المخلوق إلى خالقه، إضافة تشريف وتكريم، فخلق الله آدم على صورته يعني: صورة من الصور التي خلقها الله وصورها، كما قال تعالى: ﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ...﴾ [سورة الأعراف، الآية (10)] والمصوَّر آدم –عليه السلام–، يعني: أن الله هو الذي صوّره على هذه الصورة التي تعدّ أحسن صورة في المخلوقات، قال تعالى: ﴿لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾ [سورة التين، الآية (4)]، إذا فإضافة الصورة إلى الله من باب التشريف.

التعليق:

في الحقيقة وعند النظر والتدقيق في المسألة، نلاحظ فرقا كبيرا بين إثبات ما أثبته النّص الشرعي، والوقوف عنده، وتفويض المعنى المراد منه إلى الله –سبحانه وتعالى–، القائل في كتابه: ﴿وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا﴾ [سورة آل عمران، من الآية (7)]، وبين إثبات الصورة الظاهرة _ إن كان المقصود منها عند قائلها ما جاء في اللسان العربي بمعنى الشكل والهيئة _والتي هي من لوازم الحوادث، ثم تقول بكيفية تليق بجلال الله!!

وقد سبق أن بيّنا مذهب جمهور السلف في الآيات والأحاديث التي يوهم ظاهرها مشابهة الله تعالى للحوادث، وذلك بالإيمان والتسليم بها، وإمرارها كما جاءت بلا كيف، أما أن تثبت لله سبحانه وتعالى هيئة ثم تقول: ليس كمثله شيء، فهذا تناقض!!

ثم إن الاستدلال بالحديث المذكور لا يصلح أن يكون دليلا؛ لأن المراد من الصورة في الحديث كما بيّنه الحافظ القرطبي هي الصفة.

قال الحافظ القرطبي: "الصورة بمعنى الصفة، يعني أنّهم في إشراق وجوههم على صفة القمر ليلة تمامه، وكماله، وهي ليلة أربعة عشر، وبذلك سمّي القمر بدرا في تلك الليلة، ومقتضى هذا أن أبواب الجنّة متفاوتة بحسب درجاتهم" (المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، 179/7).

أما الجواب الثاني فمحتمل بناء على ما حمله بعض العلماء على هذا الوجه، ولكن يبقى تساؤل، وهو أن القائل بإثبات الصورة يرى أن ذلك الأسلم، ويخيّر القارئ بين إجابتين، فهذا محلّ إشكال أيضا، فكان ينبغي التقيد بإحدى الإجابتين؛ لأنك لو اعتقدت أن لله سبحانه وتعالى صورة ظاهرة، فلا ينبغي أن تقول يمكنك اختيار الجواب الثاني، وهو أن الصورة مخلوقة وإضافتها للذات الإلهية إضافة تشريف وتكريم. والله أعلم.

الخاتمة

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، والصلاة والسلام على خاتم الرسالات، وبعد؛

ففي ختام حديثنا حول قضية الصورة في حق الله تعالى، والتأويلات المحتملة، وآراء العلماء في توجيه الألفاظ للمعاني، نخلص إلى الآتي: ـ

1/ يستحيل في حق الله أن تكون له صورة ظاهرة بمعنى الهيئة والشّكل، لقوله تعالى: ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾، وقوله عز وجل: ﴿ولم يكن له كفؤا أحد﴾.

2/ تباين آراء العلماء في مرجع الضمير في حديث الصورة، هو موضع اجتهاد في فهم النص على حسب ما تقتضيه قواعد اللغة العربية، والقرائن، والأدلة على ذلك.

3/ إن الرواية التي أظهرت الضمير إلى الله عز وجل قد علّلها ابن خزيمة رحمه الله بثلاث علل. وهي ضعيفة، وكذلك ما جاء طريقه من ابن لهيعة أيضا لا يحتجّ به.

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم مصحف الجماهيرية، رواية الإمام قالون.
2. ابن أبي عاصم، أبو بكر، السنة، تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، (ط1)، 1400هـ، المكتب الإسلامي _ بيروت.
3. ابن الجوزي، أبو الفرج عبد الرحمن، دفع شبه التشبيه بأكف التنزيه، تحقيق: حسن السقاف، (بلا ط)، دار الإمام النووي.
4. ابن بطال، أبو الحسن علي، شرح صحيح البخاري لابن بطال، تعليق: أبو تميم ياسر بن إبراهيم، (بلا ط)، مكتبة الرشد، الرياض.
5. ابن حبان، المجروحين من المحدثين، المحقق: حمدي عبد المجيد السلفي، (ط1)، 1420هـ . 2000م، الناشر: دار الصميعي للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية _ الرياض.
6. ابن حجر، أحمد، فتح الباري بشرح صحيح الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق: عبد القادر شيبة الحمد، (بلا ط).
7. ابن حجر، تهذيب التهذيب، (ط1)1326هـ، مطبعة دائرة المعارف النظامية، الهند.
8. ابن حجر، طبقات المدلسين، المحقق: عاصم بن عبد الله، (ط1)، دار المنار – الأردن.
9. ابن خزيمة، محمد، كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب عزّ وجل، تحقيق: أبو مالك أحمد بن علي بن مثنى بن عبد الله القفيلي الرياشي الرداعي، (ط2).
10. ابن عبد البر، التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، تحقيق: أسامة بن إبراهيم، ط2. 1422هـ ـ 2001م، الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، القاهرة.
11. ابن فارس، أبو الحسن أحمد، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، (بلا ط)، 1399هـ، دار الفكر.
12. ابن فورك، أبو بكر، مشكل الحديث وبيانه، تحقيق: موسى محمد علي، (بلا ط).
13. ابن منظور، لسان العرب، (ط2)، 1417هـ، _ دار إحياء التراث العربي ـ بيروت . لبنان . مؤسسة التاريخ العربي.
14. أبو حيان الأندلسي، ارتشاف الضرب، تحقيق: رجب عثمان محمد، (ط1)1998م، مكتبة الخنجي، القاهرة.
15. أحمد بن حنبل، مسند الإمام أحمد بن حنبل، المحقق: شعيب الأرنؤوط – عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، (ط1) 1421 هـ – 2001 م، الناشر: مؤسسة الرسالة.
16. البخاري، أبو عبد الله محمد، الأدب المفرد، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، (ط2)1379هـ، المطبعة السلفية ومكتبتها.

17. البخاري، أبو عبد الله محمد، صحيح البخاري (بلا ط)، 1421 هـ، جمعية المكنز الإسلامي، القاهرة _ مصر.
18. البخاري، محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة، أبو عبد الله، كتاب الضعفاء، المحقق: أبو عبد الله أحمد بن إبراهيم بن أبي العينين، (ط1) 1426هـ _ 2005م، الناشر: مكتبة ابن عباس.
19. البيهقي، أبو بكر، الأسماء والصفات، تقديم: محمد زاهر الكوثري، (بلا ط، بلا ت)، الناشر: المكتبة الأزهرية للتراث.
20. الخطابي، أبو سليمان حمد، أعلام الحديث، تحقيق: د/ محمد بن سعيد بن عبد الرحمن آل سعود، (بلا ط).
21. الدارقطني، أبو الحسن علي بن عمر بن أحمد بن مهدي بن مسعود بن النعمان بن دينار البغدادي، الضعفاء والمتروكون، المحقق: د. عبد الرحيم محمد القشقري، أستاذ مساعد بكلية الحديث بالجامعة الإسلامية، (بلا ط) الناشر: مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.
22. الدارقطني، أبو الحسن علي بن عمر بن أحمد بن مهدي بن مسعود بن النعمان بن دينار البغدادي، العلل الواردة في الأحاديث النبوية، علق عليه: محمد بن صالح بن محمد الدباسي، (ط1)1427هـ، دار ابن الجوزي.
23. الدارقطني، أبو الحسن علي بن عمر بن أحمد بن مهدي بن مسعود بن النعمان بن دينار البغدادي، الصفات، تحقيق: عبد الله الغنيمان، (ط1)1402هـ، مكتبة الدار _ المدينة المنورة _.
24. الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان، سير أعلام النبلاء، تحقيق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، تقديم: بشار عواد معروف، (ط3) 1405هـ _ 1985م الناشر: مؤسسة الرسالة.
25. الرازي، فخر الدين محمد. أساس التقديس، تحقيق: د/ أحمد حجازي السقا، (بلا ط)1406هـ، مكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة.
26. الرضي، شرح الكافية، تحقيق: يحي بشير مصري، (ط1) 1996م، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.
27. الزاوي، الطاهر. مختار القاموس (ط2) 1397هـ، الدار العربية للكتاب، ليبيا _ تونس.
28. العثيمين، محمد، شرح العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية (ط 6) 1421هـ، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية.
29. عياض، أبو الفضل عياض، إكمال المعلم بفوائد مسلم، تحقيق: د/ يحي إسماعيل، (بلا ط).
30. العيني، بدر الدين أبي محمد محمود، عمدة القارئ شرح صحيح البخاري (بلا ط)، منشورات محمد علي بيضون، بيروت_ لبنان.
31. فيروزآبادي، مجد الدين محمد، القاموس المحيط، تحقيق: د/ مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة بإشراف: محمد نعيم المرقسوسي، (ط8) 1426هـ، مؤسسة الرسالة، بيروت _ لبنان.
32. القرطبي، أبو العباس أحمد، المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، تحقيق: محي الدين ديب مستو، أحمد محمد السيد، يوسف علي بديوي، محمود إبراهيم بزّال، (بلا ط) دار ابن كثير _ دار الكلم الطيب. دمشق _ بيروت.

33. القسطلاني، شهاب الدين أحمد، إرشاد الساري إلى شرح صحيح البخاري (ط7) 1333هـ.
34. الكرماني، صحيح أبي عبد الله البخاري بشرح الكرماني (ط2)1401هـ، دار إحياء التراث العربي، بيروت_ لبنان.
35. المازري، أبو عبد الله محمد، المعلم بفوائد مسلم، تحقيق: محمد الشاذلي النيفر، (بلا ط).
36. مسلم، صحيح مسلم (بلاط) 1421هـ، جمعية المكنز الإسلامي، القاهرة _ مصر.
37. مسلم، صحيح مسلم مع شرحه: الأبي، إكمال إكمال المعلم، وشرحه: السنوسي، مكمل إكمال الإكمال، مطبعة السعادة،1328هـ.
38. النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، الضعفاء والمتروكون، المحقق: محمود إبراهيم زايد، (ط1) 1396هـ، الناشر: دار الوعي – حلب.
39. النووي، صحيح مسلم بشرح النووي، (ط1)1347هـ، المطبعة المصرية بالأزهر.